سياسة الباب العالي تجاه الصراع بين أبناء محمد الشيخ السعدي 1558-1578م
على ضوء الوثائق الأرشيفية

The policy of the Sublime Porte towards the conflict between the sons of Mohammed Sheikh Al-Saadi 1558-1578 AD through archival documents

سالم جوامع [1*]، عبد الحق زريوح [2]
[1] جامعة تلمسان (الجزائر)، مخبر جمع وتوثيق الشعر الشعبي الجزائري من العهد العثماني حتى القرن العشرين،
salemdjouama1492@gmail.com
[2] جامعة تلمسان (الجزائر)، مخبر جمع وتوثيق الشعر الشعبي الجزائري من العهد العثماني حتى القرن العشرين،
zerriouh2012@gmail.com

Salem Djouama [1*], Zerriouh Abdelhak [2]
[1] Tlemcen University (Algeria) & [2] Tlemcen University (Algeria).

تاريخ الاستلام: 2021/07/27 تاريخ القبول: 2022/11/22 تاريخ النشر: 2023/01/25

ملخص:

شهدت العلاقات العثمانية السعدية خلال النصف الثاني من القرن 16م الكثير من مظاهر الصراع والصدام على الصعيدين العسكري والسياسي، وعرفت العلاقة بين الطرفين في معظم أوقاتها توترا وعداء تحول في كثير من المرات إلى معارك ومواجهات عسكرية سعى كل طرف فيها لفرض نفوذه وسيطرته في البلاد المغاربية، و لم يتجل الصراع العثماني السعدي فقط في المواجهات العسكرية بل شهد هذا الصراع كذلك اتباع أساليب سياسية ودبلوماسية من أجل ردع الآخر وبسط السيطرة عليه بما في ذلك التدخل في شؤونه الداخلية.

ومنه فإن هذه الدراسة تتمثل في البحث في موقف الدولة العثمانية من الصراع على الحكم بين أبناء السلطان محمد الشيخ السعدي في الفترة ما بين 1558-1578م ومحاولتها التدخل لدعم الأمراء اللاجئين إليها واستغلالهم في التدخل وبسط النفوذ العثماني في المغرب الأقصى.

الكلمات المفتاحية: الباب العالي، الدولة السعدية، إيالة الجزائر، الأمراء السعديون.

Abstract :

During the second half of the 16th century A.D., the Ottoman-Saadian relations witnessed many manifestations of conflict and clash on the military and political levels. The relationship between the two parties was known most of the time, tension and hostility, which in many cases turned into battles and military confrontations, in which each party sought to impose its influence and control in the Maghreb countries. The Ottoman-Saadian conflict was not only manifested in military confrontations, but this

[*] سالم جوامع.

conflict also witnessed the adoption of political and diplomatic methods in order to deter the other and control it, including interference in its internal affairs between and from it. Muhammad al-Sheikh al-Saadi in the period between 1558 and 1578 AD and its attempt to intervene with the support of the refugee princes and their exploitation in interfering and mediating the Ottoman influence in the Far Maghreb .

Keywords : Sublime porte , Saadian state, Algerian regency, Saadian princes

1- مقدمة:

على غرار الخيار العسكري في مواجهة التهديد السعدي على الدولة العثمانية ممثلة بإيالة الجزائر، اتبع الباب العالي لردع الدولة السعدية خيارات وأساليب أخرى سياسية ودبلوماسية، من ذلك إيواء المعارضة السعدية واستغلالها في الصراع العثماني السعدي.

بعد مقتل محمد الشيخ السعدي على يد العثمانيين سنة 1558م، انتقل الحكم إلى ولده عبد الله الغالب بالله والذي ثار عليه إخوته الآخرون مطالبين في أحقيتهم بالحكم وبذلك نشأ بين الأمراء السعديين صراع سياسي على العرش السعدي انتهى بلجوء أبناء محمد الشيخ السعدي المعارضين إلى الدولة العثمانية والتي انتهزت بدورها فرصة لجوئهم إليها للتدخل في المغرب الأقصى وبسط نفوذها فيه.

هذا وتتمثل الإشكالية الرئيسية لهذه الدراسة في : ما هو موقف الباب العالي وماهي سياسته تجاه الصراع بين أبناء محمد الشيخ السعدي؟ وماهي الخيارات المتبعة من قبل الدولة العثمانية للتعامل مع هذه القضية؟ وكيف استغل العثمانيون الأمراء السعديين المعارضين للتدخل سياسيا في المغرب الأقصى ومد النفوذ والسيطرة العثمانية إليه ؟

تهدف هذه الدراسة لتلسيط الضوء على زاوية من زوايا الصراع العثماني السعدي ألا وهي دور اللجوء السياسي المغربي السعدي في مراحل الصرع مع الدولة العثمانية ممثلا في إيالة الجزائر وذلك من خلال الوثائق الأرشيفية المتمثلة في المراسلات السلطانية العثمانية خلال النصف الثاني من القرن 16م.

أما بخصوص المنهج المتبع في الدراسة فقد اعتمدنا المنهج التحليلي لتحليل الوثائق المؤرخة لهذه الأحداث بما في ذلك مراسلات الباب العالي لحكام الجزائر وللأمراء السعديين على حد سواء، كما فرضت علينا طبيعة الموضوع توظيف منهج المقارنة وذلك لمقارنة الروايات التاريخية ومقاربتها بما يخدم الموضوع، خاصة في ظل تعارض الروايات التاريخية التي تَحَكَم فيها الميول والولاء السياسي للمصادر التاريخية سواء الروايات المغربية أو الروايات المؤيدة للعثمانيين ووجودهم في البلاد المغاربية دون إهمال الروايات الأجنبية التي لها قيمة كبيرة في التأريخ للموضوع قيد الدراسة.

2- استغلال الأزمة السعدية من طرف العثمانيين:

2-1: أزمة وراثة العرش السعدي:

لما قُتل محمد الشيخ السعدي على يد العثمانيين استلم ابنه عبد الله الغالب بالله الذي كان أميرا على فاس الحكم من بعده، حيث تمت بيعته من طرف أهالي فاس كما بايعه أيضا أهل مراكش وتارودانت وسائر المناطق التي كانت خاضعة لوالده محمد الشيخ، حيث جاء عن صاحب الدولة التكمدارتية:" **فأرسل إلى أهل**

فاس من أعيان وفقهاء وأشياخ وأمناء وخاصته ومن كان حاضرا من أعيان القبائل فأعلمهم بوفاة والـــده السلطان بتارودانت فجددوا له البيعة ونادى بنصره.. وأخذ بالرحيل إلى ناحية مراكش إلى أن وصلها ونزل بإزائها وخرج له أهلها وعزوه في أبيه.. وكتبوا إليه البيعة.." (مجهول، 1994، صفحة 35) وكان ذلك في محرم من سنة 965هـ/أواخر1557م. (الإفراني، 1888، صفحة 45)

بعد بيعته سطانا للمغرب الأقصى قرر عبد الله الذي تلقب بالغالب بالله الانتقال إلى مراكش في حين ولى على الأقاليم إخوته وأبناء إخوته يحكمونها باسمه، لكن الأمور لم تدم طويلا في عهد السلطان الجديد عبـــدالله الغالب حتى بدأ الانشقاق داخل البيت السعدي.

يعزو المؤرخ المعاصر للأحداث دييغو دي توريس في كتابه "تاريخ الشرفاء" سبب الانشقاق الذي حصـــل داخل البيت السعدي إلى أن السلطان عبد الله الغالب لم يرُقه حسن إدارة إخوته للأقاليم التي ولاهم عليهـــا ومحبة الرعية لهم، فقد رأى في ذلك تهديدا للمشروع الذي يحضر له ألا وهو تجهيز أبنائه للحكم مـــن بعـــده دون إخوته فقرر التخلص منهم (توريس، 1989، صفحة 228)، خاصة بعدما رفضوا تقليد ابنـــه محمـــد المتوكل ولاية العهد متجاهلا بذلك أسبقية إخوته في تولي هذا المنصب مما جعلهم يثورون ضده معارضـــين لقراره، فما كان عليه إلا أن قرر القضاء عليهم عن طريق الاغتيال، و لم ينجُ منهم سوى عبد الملك وأحمـــد وعبد المؤمن (كريم، 2006، صفحة 94) الذين فضلوا اللجوء إلى العثمانيين في الجزائر .

1-2: لجوء أبناء محمد الشيخ السعدي إلى الدولة العثمانية:

بعد تعيينه لابنه محمد المتوكل وليا للعهد واغتياله لإخوته الذين تمكن منهم، اختـــار البقيـــة اللجـــوء إلى العثمانيين في الجزائر طالبين من حكامها الدعم والمدد لاستعادة عرش أبيهم من عبد الله الغالب وابنه محمـــد المتوكل، وفي هذا الشأن يقول صاحب الدولة السعدية التكمدارتية:" **..فأما مولاي عبد الملك ومولاي أحمد فكانا بسجلماسة ومنها فرا إلى تلمسان، ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن.."** (مجهول، 1994، صفحة 34) و لم يبين هنا صاحب الرواية ما الداعي إلى فرارهما، وهو ما نجده عند الإفراني الذي يؤكد على أن ذلك كان خوفا على حياتهما من بطش أخيهم عبد الله الغالب، إذ يقول: **" وكان مولانا عبد الملك الغازي وأخـــوه أحمد المنصور بسجلماسة وحين بلغتهما وفاة أبيهما واستيلاء أخيهما على الملك بعده فرا إلى تلمسان خوفا على أنفسهما منه ولحق بهما أخوهما مولاي عبد المؤمن فبقيا بها مدة ثم فرا إلى الجزائر.."** (الإفراني، 1888، صفحة 59) ، وبما أن السياسة العثمانية منذ عهد محمد الشيخ كانت قائمة على إيواء المعارضـــة الســـعدية ودعمها ضد حكام المغرب الأقصى بما يخدم مصلحة إيالة الجزائر بالأساس فقد رحب حاكم الجزائر حسن بن خير الدين بالأمراء السعديين المنشقين ووعدهم بالإعانة لاستعادة عرشهم، كما زوج إحدى بناتـــه لعبـــد المؤمن، إذ جاء عن صاحب تاريخ الشرفاء:" **مكث عبد المؤمن بالجزائر، وأُعجب حَسن بســـلوكه النبيـــل وخصاله الحميدة حتى أنه زوجه إحدى بناته وأسند إليه حكم تلمسان وأقام بها سكناه، وظل مدة من الزمن محبوبا من أهل ولايته.."** (توريس، 1989، صفحة 230).

وأثناء مكوثهما بالجزائر راسل كل من عبد المؤمن وعبد الملك السلطان العثماني بخصوص اغتصاب أخيهما حكم المغرب الأقصى وتنكيله بإخوته، وهو ما يتضح من خلال الرد الذي جاء في إحدى مراسلات البـــاب العالي بتاريخ 7رمضان972هـــ/1562م لكلا من عبد المؤمن وعبد الملك إذ جاء فيه:

"..ورد إلى باب سعادتنا خطابكما المتضمن رجاءكما بإعانة أسطولنا الهمايوني لتحقيق آمالكما بالعودة إلى دياركما بعدما سمعتموه عن محاولة أخيكما جناب الأمير عبد الله حاكم مراكش إثر محاولتكما الاقتراب من الحدود قصد الصلح معه، وقد عرض المضمون الميمون لخطابكما بالتفصيل على حضرتنا وأصبح ما جاء فيه محاط بعلمنا الشريف.." (مهمة دفتري6، حكم 971، 972هـــ).

ومن خلال الروايات التاريخية المعاصرة ورسائل الباب العالي بخصوص لجوء الأمراء الســـعديين نجـــد أن الباب العالي قد رحب بلجوء الأمراء السعديين إلى إيالة الجزائر، كما أعطى للمعارضة السعدية وعدا بالدعم السياسي والاهتمام بقضيتهم وخلافهم مع عبد الله الغالب وهذا ما يفهم من عبارة **"وأصبح ما جاء فيه محاطا بعلمنا الشريف"** الواردة في مراسلة الباب العالي للأخوين السعديين، كما لم تكتف السياسة العثمانية بـــإيواء المعارضة السعدية ودعمها سياسيا بل أسست كذلك علاقة مصاهرة مع الأمراء الســـعديين وشـــاركتهم في الحكم بإيالة الجزائر مما يضمن ولاءهم وإخلاصهم للدولة العثمانية.

3- الباب العالي بين مساعي الصلح والتدخل العسكري ضد عبد الله الغالب:

3-1- مساعي الصلح:

مع حلول سنة 1564م رأت الدولة العثمانية أن تسلك مسلك التهدئة والصلح الحذر في التعامـــل مـــع الأوضاع في المغرب الأقصى وذلك لأسباب عديدة أهمها:

-هزيمة جيش إيالة الجزائر ضد السعديين في معركة وادي اللبن سنة 1558م

-التحالف الإسباني السعدي ضد العثمانيين ومحاولة الإسبان احتلال مستغانم سنة 1558م

-انشغال الأسطول العثماني بمعركة جربة 1560م

-خسارة صخرة بادس لصالح الإسبان سنة 1564م

-الاستعداد لحصار مالطا سنة 1565م

وفي ظل هذه المعطيات والأحداث التي تمر بها الدولة العثمانية وإيالاتها في غرب المتوســـط رأت السياســـة العثمانية أن تُقيم الصلح وتسعى إلى التهدئة بين الأمراء السعديين، حيث أن التدخل العسكري مع المغـــرب الأقصى لن يكون مجديا في ظل هذه الموازنات الإقليمة والدولية التي يشهدها غرب المتوسط، وعلى إثر ذلك بعث الباب العالي رسالة للأخوين عبد الملك وعبد المؤمن سنة 972ه/1564م جاء فيها:

"حكم إلى خلفي الأماجد والأكارم شرفي المحامد والمكارم، المختصان بمزيد من عناية الملك الدائم الشيخ عبد المؤمن والشيخ عبد الملك دام علوهما.. وأمرت: عند وصول أمري الشريف الواجب اتباعه ألا تغفلا على مداراة شقيقكما بالشكل والأسلوب الذي يراه حسن باشا أدام إقباله امير أمراء الجزائر مناسبا كي تضلا في أحسن حال.." (مهمة دفتري6، حكم 971، 972هـــ)

ويتضح لنا من خلال مضمون الرسالة حرص السياسة العثمانية عن حل سلمي للأزمة الحاصلة بين الأمراء السعديين، وعلى ضرورة استخدام الأساليب الدبلوماسية واتباع خيار الصلح من أجل حلحلة الأزمة، كما فيها توكيد من الباب العالي على ضرورة تنسيق الأمراء السعديين اللاجئين لدى إيالة الجزائر مع حاكمها تجنبا لأي تحرك فردي من قبل عبد الملك وعبد المؤمن تجاه عبد الله الغالب، بيد أن محاولة الباب العالي لإقرار الصلح بين الأمراء السعديين لم تكلل بالنجاح إثر نقض معاهدة الصلح من طرف عبد الله الغالب مما جعل السلطان العثماني يرسل بخطاب آخر لحاكم الجزائر حسن بن خير الدين يحثه فيه على ضرورة تسيير الأزمة السعدية وفق ما تقتضيه المصلحة العثمانية، حيث جاء في مراسلة من الباب العالي لبايلرباي الجزائر بتاريخ 3رمضان 972هـ/4أفريل 1565م:

"حكم إلى بكلربكي جزائر الغرب حسن باشا

أرسلتَ رسالة إلى عتبتي العليا تبلغ فيها أنه سبق أن تم عقد الصلح بين حاكم فاس عبد الله وبين أخويه عبد المؤمن وعبد الملك بوساطة بعض الصلحاء إلا أنه تم تقض ما تعاهدوا عليه فعادوا إلى الجزائر.. وقد صدر حكمي السلطاني إلى أخوي حاكم فاس المشار إليه والموجودين عندك وأرسل إليك وتقوم بتسليتهما بالشكل الذي تراه مناسبا...ولهذا فقد تم إرسال.. وزيري مصطفى باشا على رأس أسطولي السلطاني العظيم إلى البحر، وكلف بفتح قلعة مالطا والسيطرة عليها، وبعد انجلاء وضع هذه الغزوة الشريفة وعند عدم قيام حاكم فاس المومأ إليه بالجنوح إلى الصلح والصلاح.. وأظهر العداء وأصر على المخالفة تجاه تلك الأرجاء فإنه سيتم تدبير أمره في وقته وحينه، ووفق ما يستدعيه مآب سلطنتي.." (مهمة دفتري 6، حكم 972، 972هـ) ،

ومن خلال مضمون هذا الخطاب نلحظ تأكيد الباب العالي على ضرورة اتباع أسلوب الصلح والسلم تجاه الأزمة السعدية، كما حث الباب العالي حاكم الجزائر على التعامل مع إخوة عبد الله الغالب حسبما تفتضيه مصلحة الدولة العثمانية وإيالة الجزائر، إلا أن الخطاب السلطاني لم يخلُ كذلك من الإشارة إلى ضرورة ردع عبد الله الغالب إن هو لم يجنح إلى السلم وقرر مواصلة إظهار العداء تجاه إيالة الجزائر وأخويه اللاجئين فيها.

كما نجد من خلال هذا الخطاب أن الباب العالي قد فضل تأجيل اتخاذ خطوة عسكرية تجاه عبد الله الغالب بسبب استعداد القوات العثمانية لفتح مالطا سنة 1565م، وهو ماجعل السلطان العثماني يحث فيه حاكم الجزائر على ضرورة كسب الوقت ومحاولة تجنب الصراع العسكري مع عبد الله الغالب إلى ما بعد حصار مالطا.

وفي مراسلة أخرى لإيالة الجزائر موجهة من الباب العالي لحسن بن خير الدين بتاريخ 12جمادى الأولى 976هـ/02نوفمبر 1568م أخبر فيها السلطان العثماني حاكم الجزائر بمجئ عبد الملك السعدي إلى القسطنطينية وطلبه التدخل العثماني لحل الصراع بينه وبين أخيه عبد الله، وقد جاء في هذا الخطاب:

"حكم إلى أمير أمراء الجزائر

لقد حضر إلى سدة سعادتنا خلف الأمراء الكرام السيد عبد الملك دام علوه دام شقيق السيد عبد الله حاكم مراكش معلنا ولاءه وقد أعرب المذكور عن النزاع الدائر بينه وبين شقيقه بخصوص الحكم واسترعى إصدارنا خطابا همايونيا لمنحه مكانا قريبا من الجزائر لأجل معيشة وكذلك بدل مساعينا لفصل الخلاف القائم بينهما

بطريق الصلح والصلاح ودون حرب وقتال كيلا يلحق بالرعية أذى ورجا أيضا تعيين كل من السيد أحمد النوي والسيد سعيد المصري بن عاشور وهم من علماء وصلحاء الجزائر لإصلاح ذات البين بطريقة الرسالة ومطالبتهم لأخيه بإعطائه مدينة فاس.

وإذا تعذر ذلك فليطالبوه بمدينتي تارته(تازة) وتفلره(تافيلالت)مع توابعهما..وأمرت:

أن تتصل بالمذكور حال وصول هذا الحكم وفي حال موافقته على الصلح والصلاح فلتشكل الوفد على الوجه الذي ورد في خطابي الشريف ولتبعث به بالأسلوب والطريقة المناسبة..ودعهم أيضا يتجسسون آراء الناس خفية كي تظهر نواياهم فيمن يرغبونه حاكما عليهم وليحذروا من حيلة وخذيعة المشار إليه حتى يتم الصلح والصلاح على أكمل وجه." (مهمة دفتري 7، حكم 2439، 976هـ).

وفي هذه الرسالة الموجهة لحاكم الجزائر تأكيد عثماني على ضرورة إيجاد حل سلمي للصراع بين الأمراء السعديين وعلى ضرورة تجنب الخيار العسكري، وهذا ما نجده أيضا عند المصادر المغربية التي تؤكد أن السلطان العثماني رفض مساعدة عبد الملك عسكريا منذ الوهلة الأولى **"..ولما تمهد السلطان في ملكه بعد وفاة أبيه استقر مولاي عبد الملك مع أمه الرحمانية في ديار إصطنبول عند السلطان مراد وأعلمه بملك أخيه فسأله محلة لمنازعة أخيه ورد عليه القول وقال له: إني لا أعينك على فتنة المسلمين وأخوك قد تولى وبايعه المسلمون من أهل المغرب وهو أكبر منك سنا لكن سأرسل له.. فأتى رسول من عند السلطان مراد إلى مولاي عبد الله ليستخبر أهل البلاد هل هم راضون به أم لا وهل هو عادل في الرعية أم جائر إلى أن بلغ الرسول إلى مراكش"** (مجهول، 1994) وهنا تتفق الرواية المغربية مع مضمون رسالة الباب العالي في أن الأخير رفض الخيار العسكري لحل الأزمة وفضل اتباع أسلوب الصلح بين الأمراء السعديين.

ومن خلال الرسالة السلطانية الآنفة يمكننا تقديم مجموعة من الملاحظات حول موقف الباب العالي من هذا الصراع وهي:

-التأكيد على الحل السلمي للصراع بين الأمراء السعديين

-تعيين وفد الصلح بعناية من قبل الباب العالي

-وضع مجموعة من الشروط للصلح كتنازل عبد الله هن فاس أو بعض المدن الأخرى الموضحة في الرسالة، إذ أن الصلح يجب أن يحفظ حقوق كلا الطرفين

-حرص الباب العالي على ضرورة التحقق من آراء العامة فيمن يرغبون فيه حاكما وذلك تجنبا لفشل الصلح

-المطالبة بأخذ الحيطة والحذر من أية رد فعل غير مرغوب فيها من قبل عبد الله الغالب

وكما بعث الباب العالي بفرمان لحاكم الجزائر أرسل كذلك خطابا لعبد الله متعلق بنفس الموضوع يحث فيه عبد الله على ضرورة إيجاد حل سلمي للأزمة بينه وبين إخوته وأن يوليهم على بعض الأقاليم في المغرب الأقصى: **"..إن أخاك عبد الملك قدم إلى حضرتنا مظهرا الاخلاص والعبودية والانتماء.. ويكون هذا الاخلاص مؤديا لإصلاح ما بينكم وسببا لمزيل الشقاق من بينكم.. فلأجل إخلاصك ينبغي أن تعين لأخيك المشار إليه شيئا من الممالك التي انتفلت إليكم من آبائكم الكرام.. وترعى حق الأخوة فيه، وتزيل ما بينكم من الشقاق والعناد، وتكونوا مجدين في حفظ البلاد وصون العباد.."** (بيات، 2007، صفحة 605) ويبدو

أن عبد الله الغالب قد رحب ببعثة الصلح التي أرسلها السلطان العثماني وقبل بشروط السلم مع الباب العالي وهو ما يتضح لنا من رواية صاحب الدولة السعدية التكمدارتية إذ جاء عنه في ذات السياق أن عبد الله الغالب استقبل بكرم المبعوث العثماني وأرسل معه ذخائر من الذهب والياقوت إلى السلطان كما وعد المبعوث بأن يتولى شؤون إخوته وأن يرعاهم وينفق عليهم، ثم بعث عبد الله الغالب بكاتبه أبا محمد السرغيني إلى الباب العالي رفقة المبعوث العثماني حيث التقى بالسلطان سليم الثاني واتفق معه على شروط الصلح قبل أن يعود إلى المغرب الأقصى ويخبر عبد الله بالصلح الذي رضي به كلا الطرفين (مجهول، 1994، صفحة 39).

هذا كما لم تكتف السياسة العثمانية تجاه عبد المؤمن وعبد الملك بدعمهم سياسيا في صراعهما مع عبد الله الغالب بل اهتمت الدولة العثمانية بأوضاعهما المعيشية والمالية أثناء إقامتهما في إيالة الجزائر وهذا ما تطرقت إليه رسالة السلطان العثماني إلى عبد المؤمن بتاريخ 22جمادى الأولى 976هـ/22نوفمبر 1568م، إذ جا فيها:

"حكم إلى السيد عبد المؤمن

حضر إلى بابنا المعلا شقيقك عبد الملك دام علوه حاملا عرض حال يرجو فيه الاستمرار بإعطائكما ما كنتما تأخذانه من خزينة الجزائر ومن الحاصلات الأخرى كما كان الحال عليه عند قدومكما إليها.

وقد أرسل حكم شريف بهذا الشأن إلى أمير أمراء الجزائر علي دام إقباله لأجل إعطائكما ما كان يعطى لكما سواء من خزينة الدولة أو من المحاصيل الأخرى، وبناء على صداقتك وإخلاصك المعهودين لدى أستانة سعادتي منذ القديم فقد أرسلت إليك خلعة همايونية.." (مهمة دفتري 7،حكم 2481، 976هـ) كما جاء في الرسالة حث عبد المؤمن على ضرورة بذل جهوده تجاه الأمور المتعلقة بالدولة العثمانية وشؤونها الداخلية والخارجية وضرورة مواصلة العمل المشترك مع بايلرباي الجزائر (مهمة دفتري 7،حكم 2481، 976هـ).

3-2-الخيار العسكري ضد عبد الله الغالب:

في الوقت الذي كان الباب العالي يحاول حلحلة الأزمة سلميا بين الأمراء السعديين نقض عبد الله الغالب عهود الصلح مع إخوته وقرر أن يقضي على أخيه عبد المؤمن المقيم بتلمسان حيث أرسل إليه وليُ عهده محمد المتوكل أحد رجاله سنة 1570م، وقد تظاهر الأخير بفراره من المتوكل وطلب من عبد المؤمن أن يجعله من بطانته فقبل الأخير ذلك و لم يمض وقت طويل حتى تمكن الرجل من اغتيال عبد المؤمن أثناء آدائه لصلاة الجمعة حسبما ذكره صاحب تاريخ الشرفاء (توريس، 1989، صفحة 232).

كان اغتيال عبد الله لأخيه عبد المؤمن في تلمسان إيذانا صريحا من قبل الملك السعدي على رفض التدخل العثماني في المغرب الأقصى، وهذا ما أدى بالدولة العثمانية إلى تغيير طريقة التعامل مع عبد الله الغالب وقررت التدخل ضده عسكريا ودعم إخوته لاستعادة عرش المغرب الأقصى.

ففي رسالة مؤرخة بتاريخ 979هـ الموافق لسنة 1571م أمر الباب العالي حاكم الجزائر ضرورة التدخل العسكري ضد عبد الله الغالب وتهديده (مهمة دفتري12، حكم 325، 979هـ) ، وفي رسالة أخرى من نفس السنة خطاب موجه إلى عبد الملك من أجل الاتصال بالعلج وعلي والهجوم على عبد الله الذي نقض

العهد بينه وبين إخوته (مهمة دفتري 14، حكم 1571، 979هـ) ، غير أن التحولات الإقليمية والدولية في حوض المتوسط قد حالت دون التدخل العثماني عسكريا في المغرب الأقصى، إذ أن استعداد القوى الأوروبية لمواجهة عسكرية ضد الدولة العثمانية متمثلة في معركة ليبانتو سنة 1571م قد جعلت الباب العالي يستدعي علج علي حاكم الجزائر للمشاركة في هذه المعركة وبالتالي صرف النظر ظرفيا عن التدخل في المغرب الأقصى.

4- الدعم العثماني لعبد الملك واستعادة عرش المغرب الأقصى:

4-1-مشاركة عبد الملك في تحرير تونس ودورها في كسب الدعم العثماني:

في سنة 1574 م توفي عبد الله الغالب وورثه على عرش المغرب الأقصى ولده وولي عهده محمد المتوكل، وقد وافق تولي محمد المتوكل الحكم في المغرب الأقصى انتصار العثمانيين على الإسبان في تونس وضمها نهائيا للامبراطورية العثمانية، وقد كان لهذا النصر العثماني الأخير في تونس تأثير مباشر على الأحداث في المغرب الأقصى.

تذكر الروايات التاريخية أن عبد الملك السعدي شارك رفقة القوات العثمانية في فتح تونس سنة1574م مما سمح له باستمالة الباب العالي ودفعه لدعمه عسكريا لاستعادة عرش فاس من ابن أخيه محمد المتوكل، ونشير هنا إلى أن عبد الملك شارك أيضا رفقة القوات العثمانية في معركة ليبانتو سنة 1571م وأسر فيها من قبل الحلف الصليبي قبل أن يتم إطلاق سراحه، ومن هناك عاد إلى الجزائر وبقي يعمل على ربط اتصالاته بين حكام الجزائر والباب العالي وكذا أنصاره من القبائل المغربية (القدوري، 2012، صفحة 171) ، غير أن العثمانيين لم يكونوا حينئذ على استعداد أو لم يكونوا متفرغين لدعم مشروع عبد الملك خاصة أن الإسبان قاموا بحملة كبيرة على تونس سنة 1573م تطلبت تدخل الأساطيل العثمانية لتحريرها وهو ما حدث نهائيا كما أشرنا سنة 1574م.

كان لعبد الملك وأخيه أحمد المنصور دور في تحرير تونس، حيث أسندت لهما قيادة إحدى القطع الحربية المشاركة في هذه الحملة، إذ يقول الناصري في ذلك: **"..فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي وهو صاحب الجزائر أن يجعل لهما رياسة قرصان منها يتوجهان فيه للجهاد معه، فأعطاهما غليوطة فيها ستة وثلاثون رجلا فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكب الجزائر.."** (الناصري، 1954، صفحة 62)

وبنجاح الحملة العثمانية في تحرير تونس وجد عبد الملك الفرصة مواتية لاستمالة السلطان العثماني وكسب دعمه العسكري من أجل التدخل في المغرب الأقصى –بعدما رفض ذلك سابقا- إذ يقول الإفراني:" **وبعث معهم مولانا عبد الملك.. فهزم الله الكفرة ومكن من رقابهم السيف وطهر البلاد من نجسهم.. فكان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه إلى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فأعطت للسلطان المذكور ما كتبه به ابنها والتمست منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معه للغرب فأعطاها ذلك فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه إلى تملك ما كان**

بيد آبائه.." (الإفراني، 1888، صفحة 62) وهكذا نجح عبد الملك في كسب الدعم العسكري العثماني لاستعادة عرش المغرب الأقصى من ابن أخيه محمد المتوكل.

أما بخصوص الباب العالي فقد وجد الفرصة مناسبة لدعم عبد الملك مما سيضمن له تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

-القضاء على محمد المتوكل عدو العثمانيين وبسط النفوذ العثماني في المغرب الأقصى

-فك التحالف الإسباني المغربي بتولية عبد الملك حليف العثمانيين على المغرب الأقصى

-تقليص النفوذ الإسباني في غرب المتوسط وتأمين الإيالات المغاربية العثمانية من التهديدات الإسبانية

-محاولة توحيد البلدان المغاربية تحت الحكم العثماني

4-2-عبد الملك سلطانا على عرش فاس :

بعد استلام الفرمان السلطاني الذي ينص على دعم عبد الملك عسكريا قرر حاكم الجزائر رمضان باشا تجهيز جيش إيالة الجزائر من أجل الهجوم على المغرب الأقصى، واتفق الطرفان رمضان باشا وعبد الملك على أن يتحمل الأخير التكاليف المالية لهذه الحملة، إذ يقول الإفراني: **"..فطالبه أهل الجزائر بالراتب، فقال لهم أسلفوني وعلي الخلاص، فاتفق أن يعطيهم عشرة آلاف في كل مرحلة، وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف.."** (الإفراني، 1888، صفحة 62) ، وهكذا تحرك جيش إيالة الجزائر نحو المغرب الأقصى لاستعادة عرش فاس لصالح عبد الملك، وكانت قوات إيالة الجزائر مكونة من ستة آلاف جندي انكشاري وثمانمائة فارس، إضافة إلى ألف رجل من إمارة كوكو وستة آلاف من الفرسان العرب (Haedo, 1881, p. 114) ، هذا وقد أبحرت سبع عشرة سفينة مرافقة الحملة إلى السواحل الشمالية للمغرب الأقصى (بنخروف، 1983، صفحة 204).

في منطقة الرُكن قرب فاس التقى جيش إيالة الجزائر الداعم لعبد الملك وقوات محمد المتوكل السعدي الذي انسحب من المعركة بعد انقلاب قسم من قواته عليه (الناصري، 1954، صفحة 64) وانضمامها إلى عبد الملك، حيث أن الأخير كان أثناء مكوثه بالجزائر قد ربط اتصالاته بشيعته في المغرب الأقصى ومنهم من كان في قوات محمد المتوكل، فعند بداية المعركة انقلب هؤلاء إلى جيش عبد الملك، وهنا فضل محمد المتوكل الانسحاب من المعركة ولجأ إلى فاس الجديد قبل أن يفر نهائيا إلى مراكش، وكان ذلك يوم 7ذي الحجة 983هـ/ مارس 1576م (الناصري، 1954، صفحة 64) ، وفي هذا الصدد يقول ابن المفتي في تقييداته أثناء ترجمته لرمضان باشا: **"..وتجهز لحرب المغرب واستولى على فاس ونصب عليها مولاي عبد الملك سنة 983هـ.."** (المفتي، 2008، صفحة 43) ، وبانهزام المتوكل وفراره إلى مراكش دخل عبد الملك إلى فاس وبويع سلطانا على المغرب الأقصى يحكمه باسم العثمانيين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن انتصار عبد الملك على ابن أخيه المتوكل لم تكن فقط بسبب الدعم العسكري العثماني، فقد لعب عامل آخر دورا هاما في هذا الانتصار، ألا وهو غياب الدعم الإسباني للمتوكل، حيث أن ملك إسبانيا فيليب الثاني كان منشغلا بثورات الأراضي المنخفضة ضده، وكذا بالحروب التي وقعت في غرب أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت، إضافة إلى تدخل بريطانيا ودعمها للبروتستانت ضد إسبانيا الكاثوليكية

(إلتر، 1989، صفحة 247) ، وبالتالي فقد حالت هذه الأحداث في أوروبا دون دعم الإسبان لحليفهم محمد المتوكل مما أدى إلى انهزامه أمام عبد الملك وحلفائه العثمانيين.

بعد استلامه عرش فاس جدد عبد الملك بيعته للسلطان العثماني، كما قدم أهالي فاس طاعتهم للباب العالي ودعوا له بطول العمر ودوام الاقبال، وقد سر السلطان العثماني بذلك (السويكت، 2006، صفحة 197)، كما كان من مظاهر تبعية عبد الملك للباب العالي الهدايا التي كان يرسلها الأخير إلى القسطنطينية وإلقاء الخطبة باسم السلطان العثماني وسك النقود باسمه (طحطح، 2011، صفحة 107)، وفي هذا رمزية ودلالة واضحة على خضوع المغرب الأقصى زمن عبد الملك السعدي للدولة العثمانية.

ومن مظاهر تبعية المغرب الأقصى للباب العالي على عهد عبد الملك اهتمام الدولة العثمانية بالشؤون الداخلية للمغرب الأقصى وتقديم المساعدة اللازمة لحاكمها عبدالملك عند الضرورة وهذا ما جاء في عدة رسائل سلطانية، حيث جاء في رسالة مؤرخة في 985هـ الموافق لـ1577م موجهة إلى حاكم الجزائر حث فيها السلطان العثماني حاكم الإيالة الجزائرية على تقديم المساعدة لعبد الملك حاكم فاس عبد عند الحاجة (مهمة دفتري 30، حكم 348، 985هـ).

وأخيرا نقول أن الباب العالي قد نجح في مسعاه في ضم المغرب الأقصى لحكمه ولو معنويا وذلك ببيعة عبد الملك وأهالي فاس وإعلانهم التبعية للسلطان العثماني، إذ بتولية عبد الملك حليف العثمانيين وحاكمهم على المغرب الأقصى تخلص العثمانيون من التهديد السعدي لإيالة الجزائر والذي استمر منذ عهد محمد الشيخ السعدي إلى غاية تنصيب عبد الملك على عرش المغرب الأقصى سنة 1576م.

5- الباب العالي ومعركة وادي المخازن 1578م:

5-1- استنجاد المتوكل بالبرتغاليين ضد عبد الملك:

بعد انهزامه أمام عمه عبد الملك وحلفائه العثمانيين، فر المتوكل إلى إقليم سوس جنوب المغرب قبل أن يتجه نحو سبتة بعد فشل محاولات استعادة عرشه، ومن سبتة انتقل إلى طنجة أين استنجد بملك البرتغال دون سيبستيان من أجل نجدته ضد عمه عبد الملك وحلفائه العثمانيين، إذ يقول الناصري **:" كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال، واسمه سيبستيان.. وتطارح عليه وشكا إليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتصم وطلب منه الإعانة عليه كي يسترجع ملكه، فأشكاه الطاغية ولبى دعوته.."** (الناصري، 1954، صفحة 69) ، وكان المتوكل قد اتفق مع ملك البرتغال أن يتنازل له عن كافة السواحل المغربية إن هو نجح في هزيمة عبد الملك واستعادة العرش السعدي، كما تنازل له عن مدينة آصيلا الساحلية كدليل على صدقه وإخلاص وعوده (كريم، 2006، صفحة 103).

قبل الدون سيبستيان بعرض المتوكل وقرر الاستجابة لدعوته، وعلى غرار استنجاد المتوكل به كان لملك البرتغال أسباب أخرى تجعله يقدم على غزو المغرب الأقصى أهمها محو ما وُصم به البرتغال فترة حكم أبيه يوحنا الثالث من الضعف والتخاذل، حيث انسحب البرتغاليون من آسفي وآزمور وأصيلا وغيرها في الفترة مابين 1521-1557م،ناهيك عن الدافع الشخصي المتمثل في رغبة دون سيبستيان إعلاء مترلته بين ملوك أوروبا وبأن يتوج كذلك ملكا على أفريقية والمغرب (أبوخليل، 1988، صفحة 46) ، هذا ويعزو صاحب

الدولة السعدية التكمدارتية سبب قبول البرتغاليين دعم المتوكل ضد عمه عبد الملك بقوله: **"..وقال بعضهم لبعض إن هذا السلطان رأى مملكة الترك ورأى منافع البحر فأول ما أمر بإنشاء السفن، وإذا كملت لـــه العمارة يقطع إلى بلادنا.. ونحن ندبروا على ملكنا قبل أن يصلح سلطانه ويتمكن أمره، وأول التدبير عندنا أن تخرجوا وتحتووا وتتمكنوا بالسواحل وتقاتلوه في بلاده وعلى أرضه.."** (مجهول، 1994، صفحة 58) ومنه فإن البرتغاليين رأوا بأن عبد الملك منذ أن حالف العثمانيين قد أصبح مطلعا على أمور الدولة وعارفـــا لركائزها، كما أنه قد صار أقوى في وجود حلفائه العثمانيين مما يهدد وجود البرتغاليين ومصـــالحهم شمـــال المغرب الأقصى ولهذا قرر دعم المتوكل ضد عمه عبد الملك.

في سنة 1578م وبعد علمه بتحرك ملك البرتغال ضده أرسل عبد الملك لنظيره دون سيبستيان بخطـــاب يندد فيه بهذا التحرك ضده ويبين له اعتراضه على دعم ابن اخيه محمد المتوكل، إذ جاء في هذه الرسالة:**" إلى السيد دون سيبستيان، ملك البرتغال، الهادئ والرائع.. لا أدري ما الذي أثار حماستك أيها الملك لشن هذه الحرب الظالمة ضدي، إن هذا لا يرضي الله، فلا يجب أن تتطلع لاحتلال الملك الذي أعطـــاه الله لي.. إن خطأك في الإقبال على هذه الحملة سيكون أقل خطورة لو أنك تقوم بها من أجل حسابك الخاص.. أنـــك تخاطر بنفسك وبشرفك من أجل تقديم خدمة لأولئك الذين ليس لهم شرف ولا عقل.. أنت شاب عـــديم الخبرة ولديك سادة ينصحونك بالسوء، والله بيني وبينك شهيد.. وإنني هنـــا في هـــذه الرســـالة لأقـــدم اعتراضي.."**(A.Berbruger, 1866, pp. 257-261) ورغم هذا الخطاب الذي وجهه عبد الملك لنظيره البرتغالي بألا يتدخل في شؤون مملكته على اعتبار أن هذا التدخل غير عادل وسيعرض ملك البرتغـــال وجيشه للخطر، ورغم تحذير ملك إسبانيا فيليب الثاني نظيره وابن أخته البرتغالي من مغبة هذه الخطوة إلا أن الدون سيبستيان لم يتراجع عن دعمه للمتوكل وقرر غزو المغرب الأقصى (كريم، 2006، صفحة 103) ، ويبدو أن الملك الإسباني رفض دعم المتوكل وسيباستيان ضد عبد الملك بسبب معاهدة السلام التي عقـــدها قبل عام مع الأخير، والتي تبينها تلك الرسالة الموجهة لعبد الملك من الملك الإسباني فيليـــب الثـــاني بتـــاريخ 11ماي 1577م والتي جاء فيها:**" إلى مولاي عبد الملك.. المحترم والأشرف بين المغاربة، مولاي عبد الملك ملك فاس والمغرب سلام متمنياتنا بالازدهار.. تلقينا بإرادة جيدة وأمل بتحقيق سلم وصداقة معنا، وقـــد أكدنا على المدعو القبطان بالعمل على تحقيق هذا السلام.. وليحفظكم الله دائما وأبدا."** (بويقران، 2018، صفحة 128) ،وبالتالي فإن رفض ملك إسبانيا دعم نظيره البرتغالي لم يكن بسبب الخطورة المحتملة للغزوة في ظل علاقة عبد الملك الجيدة مع العثمانيين واحتمالية فشلها بل بسبب هذه المعاهدة، فإسبانيا كانت تســـعى جاهدة لإقامة علاقة جيدة مع المغرب الأقصى وبالتالي فلن تسمح أو على الأقل لن تساهم في زعزعة نفوذها واستقرار علاقاتها مع المغرب الأقصى.

5-2-اهتمام الباب العالي واستعداده لمعركة وادي المخازن:

انطلاقا من حرص الدولة العثمانية الكبير بمنطقة غرب المتوسط وبالتهديدات الخارجية على إيالاتها المغاربية فإن الباب العالي قد اهتم جيدا بموضوع لجوء المتوكل إلى البرتغال وبالحملة البرتغالية المأمولة علـــى المغـــرب الأقصى وحاكمها عبد الملك حليف العثمانيين.

ويتضح لدينا هذا الاهتمام من خلال مجموعة الاستعدادات التي باشرت الدولة العثمانية في القيام بها، وكذا انطلاقا من المراسلات التي بعثت بها إلى حكام إيالة الجزائر بخصوص هذه الغزوة، ففي رسالة موجهة من الباب العالي بتاريخ 986هـ /1578م حكم موجه إلى حسن باشا أمير أمراء الجزائر بالعمل على جمع الجند وتهيئتهم بكامل العدة للجهاد بعد احتمال هجوم ملك البرتغال على عبد الملك (مهمة دفتري 35، حكم 475، 986هـ).

كما راسل حسن باشا أيضا الباب العالي بخصوص الاستعدادات البرتغالية لهذه الحملة قبل أن يرد عليه الباب العالي بالرسالة التي مضمونها:" **تذكر في رسالتك الواردة إلينا: بأن البابا ودوق فرنسا يقومان منذ أكثر من ثلاثة أشهر بجمع الجنود وإرسال أربع أو خمس سفن وتحميلهم بالمقاتلين والذخيرة بقصد إرسالهم لمساعدة البرتغال.. وأن الملك الإسباني جمع عشرة آلاف جندي لإعطائهم إلى ملك البرتغال، كما تعهد له بتقديم ستين كادرغة من أجل نقلهم إلى السواحل العربية..**" (إلتر، 1989، صفحة 254) ويتضح لنا جليا من خلال هذه الرسالة علم الباب العالي واهتمامه بكل ما يجري غرب المتوسط وبكافة الأخطار التي يمكن أن تهدد الحليف عبد الملك أو إيالة الجزائر على حد سواء، كما نرى من خلال ما ورد كذلك في الرسالة إلمام الباب العالي بكل تفاصيل تحالف المتوكل مع ملك البرتغال وبالمراسلات المنعقدة بينهما، إذ ورد فيها: "**..وبعد أن شعر مولاي المتوكل على الله بأن بقاءه في سبتة صعب جدا، كلف ثلاثة من الأسياد بالتوجه إلى ملك البرتغال لاستعجال قدومه، وأثناء ذهابهم صادفتهم سفن عبد الملك فألقت القبض عليهم وأحضروهم إليه، وبعد الاستفسار عن المهمة المكلفين بها قتل اثنين منهم وسجن الثالث..**" (إلتر، 1989، صفحة 255) ومن هنا نرى أن الباب العالي قد علم بتحالف المتوكل مع الدون سيبستان منذ الوهلة الأولى وعلى هذا الأساس راح يجهز قواته في إيالة الجزائر للتصدي لهذا التحالف ودعم عبد الملك، كما ورد في آخر هذه الرسالة أيضا أمر حاكم الجزائر بتهيئة قوات إيالته لمساعدة عبد الملك: "**..وأنت قم بقيادة عشرين سفينة واتجه فورا إلى البحر، كما نأمر بأن تكون جاهزا ومستعدا للغزو والجهاد..**" (إلتر، 1989، صفحة 255) ، كما راسل علج علي قائد الأسطول العثماني السلطان عبد الملك بأنه سيرسل لمساعدته مائة وخمسين سفينة من نوع غاليرا وأمره بإعداد المؤن اللازمة لقوات الأسطول، كما صدر الأمر من حاكم الجزائر بإرسال حوالي خمسة آلاف مقاتل غادروا الجزائر خلال شهر ماي 1578م. (بنخروف، 1983، صفحة 218)

5-3-المعركة ونتائجها:

في يوم 25جوان 1578م خرجت القوات البرتغالية من سواحل لشبونة وعسكرت في ميناء آصيلا يوم 12 جويلية (أبوخليل، 1988، صفحة 49) وقد كان تعدادها حسب ما جاء في رواية صاحب مرآة المحاسن:"....**واحتشد أمما من النصرانية يقال إن مجموعهم كان مائة وعشرين ألفا، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل..**" (الفاسي، د.ت، صفحة 145) ، أما صاحب المنتقى المنصور فيقول عن تعداد القوات البرتغالية:" **..وكان عدد الكفرة فيما تواتر وشاع مائة ألف وخمسا وعشرين ألف..**" (المكناسي، 1986، صفحة 145) كما ضمت قوات ملك البرتغال متطوعين من الإسبان والفرنسيين والإيطاليين والألمان

(حركات، 1978، صفحة 292) ، فيما كان رفقة المتوكل جيش قوامه ثلاثمائة جندي فقط (مجهول، 1994، صفحة 59).

أما عبد الملك فقد جمع قواته وخرج من فاس وقصد مدينة سلا الساحلية قبل أن يعسكر بقواته في مدينة المعمورة يوم 16 جويلية (كريم، 2006، صفحة 105) ، وقد كان عدد قوات عبد الملك حوالي خمسة وأربعين ألف جندي بينما جند أخوه أحمد المنصور عشرة آلاف آخرين حسبما ورد في رسالة الباب العالي لحاكم الجزائر التي أوردناها آنفا، وقد كان عبد الملك قد راسل دون سيبستيان حال نزوله في آصيلا، وكان مما جاء في خطابه إليه: **"..إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر إلى عدوة المسلمين، فإن أنت ثبتت في الساحل إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي وشجاع، وإن أنت رجعت إلى بلادك وحقرت بعض الرعية قبل أن يقاتلك أمير مثلك فأنت يهودي بن يهودي.."** (مجهول، 1994، صفحة 59) ويبدو من خلال هذا الخطاب أن عبد الملك أراد من ملك البرتغال ألا يتعدى على الرعية أو يقوم بغزو الأهالي العزل في المناطق الساحلية قبل أن يلتقي الجيشان المتحاربان.

في يوم 4 أوت 1578م/30جمادى الأولى 986هـ التقى الجيشان قرب وادي المخازن، ولما عبر الجيش البرتغالي قنطرة الوادي لملاقاة قوات عبد الملك قامت الأخيرة مباشرة بدك وهدم القنطرة وهكذا تمت محاصرة الجيش البرتغالي بين الوادي وقوات عبد الملك.

كان الجيش البرتغالي أثناء المعركة تتقدمه قوات المدفعية التي تحمي المشاة فيما كان الفرسان الخيالة يمثلون الجناحين، أما جيش عبد الملك فقد اصطف على شكل نصف دائري لكي يكرس خطته في حصار نظيره البرتغالي (حركات، 1978، صفحة 293) ، ومع احتدام القتال بين الطرفين نجح الجيش السعدي في دحر قوات دون سيبستيان إلى الخلف فتراجعت إلى النهر حيث وجدت القنطرة قد هُدمت فترامى الجنود البرتغاليون إلى النهر وغرق الكثير منهم وواصل الجيش السعدي ملاحقة القوات البرتغالية وقتلوا منهم الكثير، وكان من بين القتلى دون سيبستسان ومحمد المتوكل الذين تجمع الروايات التاريخية أنهما لقيا حتفهما غرقا في النهر، فيما توفي عبد الملك كذلك أثناء المعركة بداعي المرض. (المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، 1970، صفحة 242)

بعد انتهاء واقعة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة كما تسمى نسبة إلى الملوك الثلاثة الذين ماتوا خلالها، تمت بيعة أخ عبد الملك أبو العباس أحمد المنصور خليفة له سلطانا على المغرب الأقصى حيث جاء في كتاب المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور: **"..وعقدت له البيعة في غزوته العظيمة بوادي المخازن يوم الاثنين المنسلخ من جمادى الأولى سنة ستة وثمانين، وابتدأت بيعته الشريفة بالمحل المذكور وتمت بمدينة فاس.."** (المكناسي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، 1986، صفحة 244).

5-4-موقف حكام الجزائر من تولي أحمد المنصور حكم المغرب الأقصى:

بعد وفاة عبد الملك في معركة واد المخازن أراد القادة العثمانيون في الجزائر الحيلولة دون وصول أحمد المنصور إلى الحكم وأرادوا الاطاحة به عن طريق دعمهم لإسماعيل بن عبد الملك وهو من أم تركية ليعتلي العرش السعدي ونادوا بأحقيته في الخلافة على اعتبار أنه ابن السلطان المتوفى، حيث حاولوا إثارة الجند

والعامة وأخذوا ينادون بأحقية الأمير اسماعيل بن عبد الملك في الخلافة على حساب أحمد المنصور مستغلين سمعة عبد الملك في أوساط المغاربة (الفشتالي، د،ت، صفحة 41)، كما أرسل قائد القوات العثمانية في جيش المنصور محمد بن زرقون الكاهية خطابا إلى باشا الجزائر حسن فتريانو يخبره بالوضع في المغرب وبأن الوقت سانح للتدخل فيه، غير أن القادة الموالين للأترك لم يجدوا بُدا من القبول بالأمر الواقع بعد عدم قدرتهم على إزاحة أحمد المنصور خاصة بعدما استطاع الأخير أن يثبت نفسه على العرش السعدي وأن يقضي على حركات التمرد التي قادها ضده- بدعم من حكام الجزائر- سعيد بن فرج الدغالي ومحمد بن زرقون الكاهية الداعمان للأمير إسماعيل وذلك في خريف سنة 1578م (الفشتالي، د،ت، الصفحات 41-48).

6- خاتمة:

نخلص أخيرا إلى أن الدولة العثمانية قد رحبت بلجوء الأمراء السعديين المعارضين واستغلتهم لتحقيق سياستها الرامية لوقف التدخلات والاعتداءات السعدية وتحالفاتها مع القوات الأوربية المعادية للدولة العثمانية.

كذلك يمكننا القول بأن الباب العالي تعامل مع الصراع بين أبناء محمد الشيخ السعدي بطرق عديدة اختلفت بين خيارات الصلح والتدخلات العسكرية وهو ما رأيناه من خلال المراسلات العثمانية سواء لحكام الجزائر أو لأطراف الصراع من الأمراء السعديين، كما تجدر الإشارة إلى أن الدولة العثمانية سعت بشدة ودعمت بمختلف الوسائل الأمراء السعديين اللاجئين عندها من أجل اعتلاء العرش السعدي مما سيضمن امتداد النفوذ والسيطرة العثمانية للمغرب الأقصى.

ومجملا يمكننا اعتبار السياسة العثمانية تجاه الصراع بين أبناء محمد الشيخ السعدي كُللت بالنجاح، حيث ساهمت في القضاء على الحكام السعديين المناوئين للحكم العثماني ووصول حلفائها من السعديين إلى حكم المغرب الأقصى بما يضمن توقف وانحسار التهديد السعدي على إيالة الجزائر ، وكذا مد النفوذ العثماني في المغرب الأقصى وتأسيس علاقات -على الأقل- غير عدائية مع الحكام السعديين الجدد من أبناء محمد الشيخ السعدي.

7- المصادر والمراجع:

أولا: الوثائق الأرشيفية: مجموعة الدفاتر المهمة بالأرشيف الوطني الجزائري:

1. مهمة دفتري6، حكم 971، 972هـ
2. مهمة دفتري6،حكم 971، 972 هـ
3. مهمة دفتري 6، حكم 972،972هـ
4. مهمة دفتري 7، حكم 2439، 976هـ
5. مهمة دفتري 7،حكم 2481، 976هـ
6. مهمة دفتري 7،حكم 2481، 976هـ
7. مهمة دفتري 30، حكم 348، 985هـ

8. مهمة دفتري 35، حكم 475، 986هـ
9. مهمة دفتري12، حكم 325، 979هـ
10. مهمة دفتري 14، حكم 1571، 979هـ
11. مهمة دفتري 30، حكم 348، 985هـ
12. مهمة دفتري 35، حكم 475، 986هـ

ثانيا: المصادر:

1. الإفراني الصغير الفشتالي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، تح، أ.هـوداس ،د.ط، مطبعة بردين، أنجي، فرنسا،1888
2. دي توريس دييغو، تاريخ الشرفاء، تر، محمد الحجي و محمد الأخضر، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1989
3. الفاسي بن يوسف محمد العربي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تح، الشريف محمد الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن بن جلد، دت
4. الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تح، عبد الكريم كريم، د،ط، مطبوعات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، د،ت
5. ابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح، محمد الأحمدي، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس،1970
6. ابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تح، محمد رزوق، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1986
7. الناصري أحمد بن خالد ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح، محمد الناصري وجعفر الناصري، د.ط، دار الكتاب، الدار البيضاء المغرب 1954
8. ابن المفتي حسين شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها تح، فارس كعوان، ط1، دار بيت الحكمة العلمية، الجزائر، 2009
9. مجهول، الدولة السعدية التكمدارتية، تح، عبد الرحيم بنحادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994
10. Haedo F.D ,Histoire des Rois d'Alger, Tr, H.D De Grammont, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger,1881.

ثالثا: المراجع:

أ-الكتب:

1. إلتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيين في أفريقيا الشمالية، تر، محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان،1989
2. بيات فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي(دراسة تاريخية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا، مطلع العهد العثماني-أواسط القرن 19م)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007
3. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1978
4. أبو خليل شوقي، وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988
5. القدوري عبد المجيد، المغرب وأوروبا مابين القرنين 15و18م مسألة التجاوز، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012
6. كريم عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006

ب-الرسائل الجامعية:

1. بن خروف عمار، العلاقات بين الجزائر والمغرب 1519-1659م، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1983

ج-المقالات:

1. السويكت فهد بن محمد، موقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية، مجلة جامعة الملك سعود، مج19،2006
2. طحطح خالد، العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن 16-18م، مجلة كان، ع14، 2011
3. بويقران خالد، علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية الدفينة لتاريخ المغرب، مجلة كان، ع39، 2018
4. Berbruger A, Une lettre inédite d'un empereur du Maroc, R.A,V10,1866.